من دموع القلب !

« مهداة إلى الأستاذ أنور العطار »

للأستاذ على الطنطاوى

« هل تذكر يا أنور ، يوم جزنا بمقبرة الدحداح ونحن طفلان يتيمان فى طريقنا إلى المنزلين الصغيرين المتجاورين فى (السمانة) فوقفنا ساعة على القبرين المتدانيين نزور أبوينا … ثم ذهبنا مسرعين لنودع آلامنا صدر الأم ؟

أتذكر ما قلت لى يومئذ عن حبك أمك وتعلقك بها ، وما قلت لك ؟ أتذكر أننا اتفقنا على أن الحياة مستحيلة علينا بعد الأمهات وأننا سنبقى معهن أبداً وشملنا جميع وعقدنا متصل ؟

لقد كان ما ظنناه مستحيلا يا أنور … لقد ماتت أمى وأمك واحتواهما ذلك القبر الذى حوى أبوينا من قبل وعشنا بعدهما … لم نعد نملك منهما يا أنور إلا دموعا حرى فى العين وحسرات لاذعات فى القلب … لقد غابتا إلى الأبد ! » (على)

لست أدرى ما الذى يحملنى على ذكر الماضى ونبش عظامه النخرة ؟ وما الذى يغرينى بأن ألتمس مكان أحلامى من الواقع … وأنا أعلم أن الماضى قد ذهب بمسراته وأحزانه ولم يبق فى يدى منه إلا هذه الذكريات التى طالما حاولت أن ألقى بها فى الزاوية المظلمة من نفسى لتنام فيها إلى الأبد ، فكانت تستفيق كلما أردت نسيانها فتسود صفحة الحياة فى ناظرى حتى لا أرى فيها جميلا ولا بهيًّا … وأنا أعلم أن أحلامى التى بنيتها بقطع قلبى ، وأنقاض أيامى، ورويت رياضها بدمع عينى، قد جف زهرها، وصوّح نبتها، وانهارت أمام عينى دفعة واحدة ، كما ينهار بيت من ورق اللعب ضربته كف إنسان … فأيست منها وذهبت أعيش بقلب محطوم وكبد مكلومة ، فأضحك وأمرح حتى ليظننى الناس أسعد الناس وأنا أشقاهم وأخيبهم أملا ، وأشدهم ألمًا …

فلماذا أعود الليلة إلى الماضى التى ماتت أيامه ، وماتت أحلامه ومات ناسه ؟

* * *

كنت أطل من شرفتى فى الفندق على شارع الرشيد فى بغداد الذى يمثل الحياة ويفسرها ويصور حقيقتها أكثر من تصوير الأدباء وتفسير الفلاسفة ، بل إن ساعة واحدة تشرف فيها على شارع الرشيد أجدى عليك فى فهم الحياة من دراسة عشر سنين فى هذه الكتب …

وماذا فى الكتب إلا الحيرة والضلال ؟ ومنذا الذى تبلغ به الحماقة وتغيض على نفسه حتى يدعى أنه فهم الحياة من الكتب ؟ أنا أحد صرعى هذه الكتب وضحاياها فسلونى عن خيبتى وخسارى!

قالت الكتب : إن المستقيم أقصر الخطوط فاسلكه تصل ، واستقم تبلغ غايتك ، فسرت قدماً فاصطدمت بأول جدار لقيته فشج رأسى وقعدت مكانى ، واستدار غيرى والتوى كما تستدير طرق الحياة وتلتوى فوصل

قالت الكتب : كن فاضلا واحرص على مكارم الأخلاق فهى السبيل ، فوجدت أهل الرذيلة هم الذين يصلون ، ورأيت أسفل الناس أخلاقاً صار أستاذاً للأخلاق فى أكبر مدرسة ، فعجبت من سخر الحياة !

وقالت الكتب : الحق ، وقالت الحياة : القوة … وقالت الكتب : الفضائل . وقالت الحياة : الشهوات . وقالت الكتب… ولكن لم يكن إلا ما قالت الحياة !

ونظرت إلى شارع الرشيد ، فاذا السيارات من كل جنس ولون ، والعربات من كل شكل ونوع ، والدراجات والعجلات ، كلها يعدو يريد أن يصل أولا ، وكلها يزاحم ، وكلها يزأر ويصيح ويهدد ، ولكنها إذا بلغت الغاية رأت أنها لم تصل إلى شىء فعادت أدراجها تزاحم وتعدو وتصيح …

فقلت : كذلك الحياة … سباق وتزاحم ، ولكن ما هى الغاية ؟ لا شىء … !

* * *

ودخلت الغرفة وأغلقت علىّ بابى ، وأردت أن أفىء إلى عزلة أسكن فيها نفسى ، وأجد فيها راحتى ، ولكن الباب قرع ، وجاء السيد حيدر الجوادى ، الرجل الذى ملك على الدكتور زكى مبارك أمره ، وأطربه وأعجبه حتى غدا لا يصبر عن سماعه حينًا

رآه ، وحتى اضطره إلى الغناء في المكتبة العامة ، وقال له : غنّ هاهنا فوالله ليتحدثن بها الناس وليقولن إن زكي مبارك ابتدع الغناء في المكتبات ... جاءني فغناني (أبوذية) من (أبوذيات العراق) التي ما أظن أن إنسيا أو جنيا عرف نغمة أشجى منها وأسرع إلى القلب وصولا ، وأشد للألم تصويراً . هي قطرات من الدمع صورت نغما . هي خفقات القلب صيغت نشيدا . هي... هي خلاصة الفن العبقري الذي يصور الألم العبقري ... فهز نفسي هزا عنيفاً ، فتح صفحاتها جميعا ووصل ماضيها بحاضرها ، وأسلمها إلى ذهلة عميقة — لذة ممتعة — ولكنها أليمة موجعة ، ذكرت (العتابا) تلك الأغنية التي ترن بها أبداً أودية لبنان ، وتتحدر أصداؤها على سفوحه وحدوره ، ولا يدري أحد من هو الذي وضعها ونظم مطلعها وألف لحنها ، (العتابا) الخالدة التي يشترك في تأليفها العصر الجديد والعصر الغابر ، ويزيد فيها كل جيل أدواراً فيكون منها الصورة الصادقة لعواطف الشعب وهواجسه وأمانيه وذكرياته ، تلك التي تعيش في ترنيمة السواقي المتكسرة على الشعاف والصخور لتبلغ قرارة الوادي ، وفي نشيد الرياح في الأودية البعيدة ، وفي همس الأوراق في غابات الصنوبر الضاحكة ، وفي عطر كل زهرة ، وصمت كل صخرة ، وأشعة الشمس المطلة من وراء الذرى للسلام ، والمشرفة من آخر الأفق للوداع ، وفي نور القمر الذي يغمر لبنان بفيض من الشعر والحب والسحر ، وتعيش في كل ذروة من لبنان !

* * *

وجعتني هذه (الأبوذية) إلى سالفات أيامي ، فذهبت أعرض صور حياتي فيها وهي تمر بي متتالية متعاقبة كمناظر السينما ملتفة بضباب الماضي ، فأرى مآسيها المغسولة بالدموع وفواجعها الدامية ولكني لا أرى منظر بهجة ولا سرور ... فهل أرى البهجة والسرور بعد أن أشرفت على الثلاثين ؟

كنت أفكر دائماً في المستقبل ، وأنتظر المستقبل ، فها هو ذا المستقبل قد صار حاضراً ، فهل وجدت فيه إلا الخيبة والألم ؟ لقد جربت الصناعات والفنون، وطوفت في البلدان، فما أفدت من ذلك كله إلا أني تركت في كل بلد قبراً لأمل من آمالي . لقد أضعت الحب والمال ، وأضعت المجد الأدبي ، حتى هذه الألحان التي تدور في نفسي ضاعت مني ... فلم أستطع أن أسمعها الناس أغاني وأصواتاً ، ما سمع الناس إلا أقصر أغاني وأقبحها ، وتلك هي مقالاتي التي نشرتها ، فتى يسمعون أجمل ألحاني وأطولها ؟ في المستقبل !

يا ويح نفسي ! هل بقي لي مستقبل إلا الموت الذي غدوت أحبه وأناديه لو كان يسمع النداء ؟

* * *

لقد وجدت المستقبل عدماً فهل عليّ من لوم إذا عدت إلى ماضيّ أعيش فيه ؟

في هذا الماضي دفنت أمي ، وفيه دفنت أبي ، وفيه دفنت أحلامي ... لقد أحببت كثيراً وتألمت أكثر مما أحببت ، ولكن الحب الحقيقي الواحد الذي انطوى عليه قلبي ، والألم الفرد الصادق الذي عرفه ، هو حبي أمي ، وألمي لموتها ، وكل ما عداهما حب كاذب ، وألم عارض

إني لأنسى البلاد كلها حتى منازل حبي ، وربوع هواي ، ولكني لا أنسى أبداً ذلك الزقاق الضيق الذي يمتد من العقيبة في دمشق إلى رحبة الدحداح ، لأن سعادتي ولدت في أول هذا الزقاق ، وماتت في آخره حين مات أبي وأمي ...

فيارب ارحمني بالنسيان، وأين مني النسيان ؟

إني لأنظر إليها الآن وهي مريضة على فراشها ، كأنما كان ذلك منذ ساعة ، فيبكي قلبي ولا أستطيع أن أكتب عنها حرفاً . لا أحب أن أنشر أحزاني حتى لا تلوكها ألسنة الناس ، فليبق الألم في صدري أحمله وحدي ... أنا لا أصدق أن هذه السنين السبع قد مرت على ذلك الحادث ... أأنا أعيش سبع سنين لا أرى فيها أمي ، وقد كنت آلم إن غبت عنها يوماً ؟ أأعيش وهي نازحة لا تعود بعد عام ولا عشرة ، لا تعود قبل يوم القيامة ؟

اللهم صبراً فإني والله ما أطيق الصبر !

يقولون إن المصيبة تبدأ صغيرة ثم تكبر ، ولكن مصيبتي بأمي تنمو في نفسي كل يوم !

لم أعد أجد فى الحياة ما يغرينى بها ، ويرغبنى فيها ؟ وماذا فى الحياة ؟ كل لذة فيها منشاة بألم ، فيها الربيع الجميل ، ولكن فيه يذور الصيف المحرق ، والشتاء القاسى . وفيها الحب ، ولكن لذة الوصال مشوبة بمخافة الهجر . وفيها الصحة والشباب ، ولكنهما يحملان الهرم والمرض . فيها الغنى ، ولكنى ما عرفته وما أحسبنى سأعرفه أبداً .

لقد كرهت الحياة ، وزادها كراهة إلىّ هؤلاء الناس ، فلم يفهمنى أحد ولم أفهم أحداً . إن حزنت فأعرضت عنهم مشتغلاً بأحزانى قالوا ، متكبر ، وإن غضبت للحق فنازعت فيه قالوا ، شرس ، وإن وصفت الحب الذى أشعر به كما يشعرون قالوا ، فاسق ، وإن قلت كلمة الدين قالوا ، جامد ، وإن نطقت بمنطق العقل قالوا ، زنديق ، فما العمل ؟ إليك يا رب المشتكى فما لى فى الدنيا بعد أبى صديق !

تلك هى التى كانت تقبلنى على علاتى ، والناس لا يقبلون إلا محاسنى . تلك التى كانت تحبنى أنا ، والناس يحبون أنفسهم فىّ . تلك هى الحبيبة الوفية التى لا تهجر ولا تخون ، تلك هى دنياى ، فوا أسفى ، إن دنياى قد احتواها التراب !

لم يبق من آثار هذا العالم الحافل بالاخلاص والحب إلا قبر منعزل وساقية صغيرة ، تميل عليها شجرة صفصاف ، وهذا كل شىء . . .

إنى لأقدس ذكرى هذه الشجرة ، وأخشع لها . إن حركات غصونها لتحرك فى نفسى عالماً كاملا ، ولكنها لا تبالى ذكرياتى ولا تحفلها . إنها قائمة تحنو على اللص الفاتك ، كما تحنو على المحب الثاكل ، وتؤوى المجرم الهارب ، كما تؤوى الشاعر المتنزل ، فما أضيع ذكريات المحبين عند الطبيعة ، وما أضيعها عند الناس !

لقد انصرف عنى السيد حيدر الجوادى ، ونام عنى أصحابى ، وتركونى أتجرع غصص آلامى وحيداً ، فمن هو الذى يعطف على ، ويشاركنى حمل الآلام ؟ لقد أيست من الطبيعة ومن الأصحاب ، فهل تسعدنى أنت يا أيها المحسن المجهول الذى لا أعرفه أبداً ؟ أنت يا من يجوز مع الشمس بمقبرة الدحداح يزور حبيباً له طواه الرمس ، هل تمر على غريب متألم فتحيى عنه هذه البقعة وتعطف على ذكريات له فيها ، هى أعز عليه من الحياة ، لأنها كانت جمال الحياة ؟ هل تترفق فى سيرك وتتئد وتعلم أن فى هذه الرمال التى تطؤها أطلال قلب كان من قبل عامراً سليما . . . ترفق فانك لو ملكت حاسة تدرك بها الذكريات لرأيت فى هذه البقعة ما بين رمالها وترابها ، بقايا قلب محطوم ، بقايا دامية حزينة شاكية ، ولسمعت نشيجها

ما تصدع هذا القلب من هجر الحبيب ، ولا هدته أحداث الغرام ، ولكن عصفت به عاصفة من موت الأم فهدت أركانه ، فاسكب على بقاياه قطرة من الدمع تحيها بها ساعة ، أو قل كلمة تسعد بها روحه الحزينة ، ثم توجه إلى القبر المحبوب ، إلى قبر أمى وأبى أيها الصديق المجهول ، فاسأل الله لنا كتبه الرحمة والغفران ، فما بقى لى بعدهم أحباء ، ولا بعده دنيا . . .

لقد تركت تحت أقدامك قلبى وحبى يا أيها المحسن المجهول ، فارفق بهما . أسعد هذا اليتيم الضعيف ، وإن كان الناس يدعونه شيخاً ، وإن كان فى الثلاثين من عمره !

رب ، رحمة لهذا اليتيم الضعيف ، ابن الثلاثين !

« رب اغفر لى ولوالدى ؛ رب ارحمهما كما ربياني صغيرا »

(بغداد — المدرسة الغربية) على الهاشمى

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الكاتب

ابى العلاء المعرى

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

وهو مضبوط بالشكل الكامل ويقع فى قرابة ٥٠٠ صفحة

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة